باب العقائد من الامالي الدينية

(الدرس ٣٧ — آية الله الكبرى — القرآن)

نبدأ هذا البحث الجليل بما كتبه القاضي عياض في الشفاء من وجوه الاعجاز وبعد ذلك نذكر ماهو أقوى منها أو أوضح قال رحمه الله تعالى:

(فصل في اعجاز القرآن)

اعلم وفقنا الله وإياك أن كتاب الله العزيز منطو على وجوه من الاعجاز كثيرة ونحصيها من جهة ضبط أنواعها في أربعة وجوه —

١٠٥ (أولها) حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان الكلام قد خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم. وأوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان. ومن فصل الخطاب مايقيد الألباب. جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة. وفيهم غريزة وقوة. يأتون منه على البديهة بالعجب. ويدلون به الى كل سبب. فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب. ويرتجزون به بين الطعن والضرب. ويمدحون ويقدحون. ويتوسلون ويتوصلون. ويرفعون ويضعون. فيأتون من ذلك بالسحر الحلال. ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل. فيخدعون الالباب. ويذللون الصعاب. ويذهبون الاحن. ويهيجون الدمن. ويجرئون الجبان. ويبسطون يد الجعد البنان. ويصيرون الناقص كاملا. ويتركون الثنيه خاملا. منهم البدوي ذو اللفظ الجزل. والقول الفصل. والكلام الفخم. والطبع الجوهري. والمنزع القوي. ومنهم الحضري ذو البلاغة البارعة. والالفاظ الناصعة. والكلمات الجامعة. والطبع السهل. والتصرف في القول. القليل الكلفة. الكثير الرونق. الرقيق

الحاشية ، وكلا البابين فلهما في البلاغة الحجة البالغة . والقوة الدامغة : والقدح الناجع : والمهيع الناهج . لايشكون ان الكلام طوع مرادهم ، والبلاغة ملك قيادهم . قد حووا فنونها ، واستنبطوا عيونها . ودخلوا من كل باب من أبوابها . وعلوا صرحا لبلوغ اسبابها . فقالوا في الحطير والمهين . وتفننوا في الغث والسمين . وتقاولوا في القل والكثر ، وتساجلوا في النظم والنثر . فما راعهم الا رسول كريم بكتاب عزيز «لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» . احكمت آياته ، وفصلت كلماته ، وبهرت بلاغته العقول . وظهرت فصاحته على كل مقول . وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه . وتباينت في الحسن مطالعه ومقاطعه . وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه . واعتدل مع ايجازه حسن نظمه . وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه . وهم أفصح ما كانوا في هذا الباب مجالا . وأشهر في الخطابة رجالا ، وأكثر في السجع والشعر سجالا ، وأوسع في الغريب واللغة مقالا ، بلغتهم التي بها يتحاورون ، ومنازعهم التي عنها يتناضلون ، صارخا بهم في كل حين ، ومقرعا لهم بضعا وعشرين عاما على رؤوس الملا اجمعين : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » « وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » الى قوله « ولن تفعلوا » و « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن » الآية (١) و « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » وذلك ان المفترى أسهل . ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب . واللفظ اذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب . ولهذا قيل : فلان يكتب كما يقال له وفلان يكتب كما يريد . وللأول على الثاني فضل وبينهما شأو بعيد . :

« فيزل يقرعهم صلى الله عليه وسلم أشد التقريع . ويوبخهم غاية التوبيخ . ويسفه أحلامهم . ويحط اعلامهم . ويشتت نظامهم . ويذم آلهتهم وآباءهم . ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم (٢) وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته . محجمون عن مماثلته . ويخادعون

(١) تمامها « لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (٢) أي يفعل ذلك بهم بعد مافعلوا أشد منه به وبمن تبعه من القتل والنفي والتمثيل حتى انه لم يبدأهم بعدوان وانما كان مدافعاً حتى أظفره الله تعالى

أنفسهم بالتشغيب بالتكذيب ، والاغراء بالافتراء وقولهم : ان هذا الا سحر يؤثر وسحر مستمر وانك افتراه وأساطير الاولين : والمباهتة والرضى بالدنية كقولهم : قلوبنا غلف : و(١)في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب : ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون : والادعاء مع العجز بقولهم : لو نشاء لقلنا مثل هذا : وقد قال لهم الله « ولن تفعلوا » فما فعلوا ولا قدروا . ومن تعاطى ذلك من سخفائهم كمسيلمة كشف عواره لجميعهم ، وسلبهم الله ألفوه من فصيح كلامهم . والا فلم يخف على أهل الميز منهم انه ليس من نمط فصاحتهم ، ولا جنس بلاغتهم . بل ولوا عنه مدبرين وأتو مذعنين من بين مهتد وبين مفتون . ولهذا لما سمع الوليد بن المغيرة من النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله يأمر بالعدل والاحسان » الآية قال : والله ان له لحلاوة . وان عليه لطلاوة . وان أسفله لمغدق . وان اعلاه لمثمر . ما يقول هذا بشر : وذكر أبو عبيد ان أعرابيا سمع رجلا يقرأ « فاصدع بما تؤمر » فسجد وقال : سجدت لفصاحته : وسمع آخر رجلا يقرأ « فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا » فقال : أشهد ان مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام : وحكي ان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه كان يوما نائما في المسجد فاذا هو بقائم على رأسه يتشهد شهادة الحق فاستخبره فأعلمه أنه من بطارقة الروم ممن يحسن كلام العرب وغيرها وانه سمع رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من كتابكم فتأملتها فاذا قد جمع فيها ما أنزل على عيسى ابن مريم من أحوال الدنيا والآخرة وهي قوله « ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه » الآية . وحكي الاصمعي أنه سمع كلام جارية فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ! فقالت : أو يعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى «وأوحينا الى أم موسى ان أرضعيه » الآية(٢) جمع في آية واحدة بين امرين ونهيين وخبرين وبشارتين :

«فهذا نوع من الاعجاز منفرد بذاته غير مضاف الى غيره على التحقيق والصحيح من القولين . وكون القرآن من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وانه أتى به معلوم ضرورة .

(١) أي « وقالوا قلوبنا في أكنة » الخ (٢) تمامها « فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين »

وكونه صلى الله عليه وسلم متحدّيا به معلوم ضرورة . وعجز العرب عن الاتيان به معلوم ضرورة. وكونه في فصاحته خارقا للعادة معلوم ضرورة للعالمين بالفصاحة ووجوه البلاغة. وسبيل من ليس في أهلها علم ذلك بعجز المنكرين من أهلها عند معارضته واعتراف المقترين بإعجاز بلاغته وأنت اذا تأملت قوله تعالى « ولكم في القصاص حيوة » وقوله « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب » وقوله « ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » وقوله « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » الآية وقوله « فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً » الآية وأشباعها من الآي بل أكثر القرآن حققت ما بينه في ايجاز ألفاظها وكثرة معانيها وديباجة عباراتها وحسن تأليف حروفها وتلاؤم كلمها وان تحت كل لفظة منها جملا كثيرة وفصولا جمة وعلوما زواخر ملئت الدواوين من بعض ما استفيد منها . وكثرت المقالات في المستنبطات عنها

« ثم هو في سرد القصص الطوال واخبار القرون السوالف التي يضمحل في عادة الفصحاء عندها الكلام ويذهب ماء البيان ، آية تتأمله من ربط الكلام بعضه ببعض والتئام سرده وتناصف وجوهه كقصة يوسف عن طولها . ثم اذا ترددت قصصه اختلفت العبارات عنها على كثرة ترددها حتى تكاد كل واحدة تسلب في البيان صاحبتها . وتناصف في الحسن وجه مقابلتها . ولا نفور للنفوس في ترديدها . ولا معادة لمعادها .

فصل

م ١٠٦ (الوجه الثاني من اعجازه) صورة نظمه العجيب والاسلوب الغريب المخالف لاساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليها ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته اليه . ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد ممائلة شيء منه . بل حارت فيه عقولهم ، وتذللت دونه أحلامهم . ولم يهتدوا الى مثله في جنس كلامهم . من نثر أو نظم أو سجع أو رجز أو شعر . ولما سمع كلامه صلى الله عليه وسلم الوليد ابن المغيرة وقرأ عليه القرآن رق فجاءه أبو جهل منكراً عليه قال : والله ما منكم أحد أعلم بالاشعار مني ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا : وفي خبره الآخر حين

جمع قريشاً عند حضور الموسم وقال : ان وفود العرب ترد فأجمعوا فيه رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً: فقالوا «نقول كاهن» قال والله ماهو بكاهن ماهو بزمزمته ولا سجعه، قالوا « مجنون » قال وما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته . قالوا فنقول « شاعر » قال ما هو بشاعر قد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه وما هو بشاعر . قالوا فنقول « ساحر » قال وما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده. قالوا فما نقول: قال وما أنتم بقائلين فى هذا شيئاً الا وأنا أعرف أنه باطل وإن أقرب القول «انه ساحر» فانه سحر يفرق به بين المرء وابنه(١) والمرء وأخيه والمرء وزوجه والمرء وعشيرته : فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس فأنزل الله تعالى فى الوليد «ذرني ومن خلقت وحيداً » الآيات

«وقال عتبة بن ربيعة حين سمع القرآن : ياقومي قد علمتم اني لم أترك شيئاً الا وقد علمته وقرأته والله لقد سمعت قولا والله ماسمعت مثله قط ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة : وقال النضر بن الحرث نحوه . وفى حديث إسلام أبي ذرّ ووصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخي أنيس لقد ناقض اثنى عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم وانه انطلق الى مكة وجاء الى أبي ذرّ بخبر النبي صلى الله عليه وسلم قلت فما يقول الناس : قال يقولون شاعر . كاهن . ساحر . لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان احد بعدي (٢) انه شعر وانه لصادق وانهم لكاذبون »

«والاخبار فى هذا صحيحة كثيرة والاعجاز بكل واحد من النوعين الايجاز وبلاغة بذاتهما والاسلوب الغريب بذاته كل واحد منهما نوع اعجاز على التحقيق لم تقدر العرب على الاتيان بواحد منهما اذ كل واحد خارج عن قدرتها. مباين لفصاحتها وكلامها. والى هذا ذهب غير واحد من أئمة المحققين. وذهب بعض المقتدى بهم الى ان الاعجاز في مجموع البلاغة والاسلوب وأتى على ذلك بقول تمجه الاسماع. وتنفر منه القلوب. والصحيح ماقدمناه والعلم بهذا كله ضرورة وقطعاً. ومن تفنن فى علوم البلاغة وأرهف خاطره ولسانه أدب هذه الصناعة لم يخف عليه ما قلناه

(١) فى نسخة «وابيه» (٢) لعل الصواب (يدّعي)

* * *

«وقد اختلف أئمة أهل السنة فى وجه عجزهم عنه فأكثرهم يقول : انه ماجمع فى قوة جزالته ونصاعة ألفاظه وحسن نظمه وايجازه وبديع تأليفه وأسلوبه لايصح أن يكون فى مقدور البشر وانه من باب الخوارق الممتنعة عن إقدار الخلق عليها كاحياء الموتى وقلب العصا وتسبيح الحصا : وذهب الشيخ أبو الحسن الى أنه مما يمكن ان يدخل مثله تحت مقدور البشر ويقدرهم الله عليه ولكنه لم يكن هذا ولا يكون فمنعهم الله هذا وعجزهم عنه.وقال به جماعة من اصحابه . وعلى الطريقين فعجز العرب عنه ثابت : واقامة الحجة عليهم بما يصح ان يكون فى مقدور البشر وتحديهم بأن يأتوا بمثله قاطع ؛ وهو أبلغ فى التعجيز ؛ واحرى بالتقريع ؛ والاحتجاج بمجيء بشر مثلهم بشيء ليس من قدرة البشر لازم،وهو ابهر آية .واقمع دلالة ؛ وعلى كل حال فما اتوا في ذلك بمثال . بل صبروا على الجلاء والقتل .وتجرعوا كاسات الصغار والذل. وكانوا من شموخ الانف وإباءة الضيم بحيث لايؤثرون ذلك اختياراً . ولا يرضونه الا اضطراراً . والا فالمعارضة لو كانت من قدرهم.والشغل بها اهون عليهم . واسرع بالتجيح وقطع العذر والخصام الخصم لديهم.وهم ممن لهم قدرة على الكلام.وقدوة فى المعرفة به لجميع الانام.وما منهم الا من جهد جهده ؛ واستنفد ماعنده.في إخفا ظهوره. وإطفاء نوره.فما جلوا في ذلك خيفة من بنات شفاههم ؛ ولا أتوا بنطفة من معين مياههم.مع طول الامد وكثرة العدد.وتظاهر الوالد وما ولد.بل أبلسوا فما نبسوا. ومنعوا فانقطعوا ؛ فهذان النوعان من إعجازه.

فصل

م ١٠٧ (الوجه الثالث من الاعجاز) ما انطوى عليه من الاخبار المغيبات وما لم يكن ولم يقع فوجد كما ورد وعلى الوجه الذي أخبر كقوله تعالى « لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين » وقوله تعالى « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » وقوله « ليظهره على الدين كله » وقوله « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض » الآية وقوله « اذا جاء نصر الله والفتح » الى آخرها.فكان جميع هذا كما قال فغلبت الروم فارس فى بضع سنين ودخل الناس في الاسلام أفواجا فما مات صلى الله عليه وسلم وفي بلاد العرب كلها موضع لم يدخله الاسلام واستخلف المؤمنين في الارض

ومكن فيها دينهم وملكهم إياها من اقصى المشارق الى أقصى المغارب كما قال صلى الله عليه وسلم « زويت لي الارض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي مازوي لي منها » وقوله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » فكان كذلك . لايكاد يعد من سعى في تغييره وتبديل محكمه من الملحدة والمعطلة لاسيما القرامطة فأجمعوا كيدهم وحولهم وقوتهم الى اليوم نيفاً على خمس مئة عام فاقدروا على إطفاء شيء من نوره . ولا تغيير كلمة من كلامه : ولا تشكيك المسلمين في حرف من حروفه : والحمد لله . ومنه قوله « سيهزم الجمع ويولون الدبر » وقوله « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم » الآية وقوله « هو الذي أرسل رسوله بالهدى » الآية « لن يضركم الا أذى وان يقاتلوكم » الآية فكان كل ذلك . وما فيه من كشف أسرار المنافقين واليهود ومقالهم وكذبهم في حلفهم وتقريعهم بذلك كقوله « ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول » . وقوله « يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك » الآية . وقوله « من الذين هادوا سماعون للكذب » الآية وقوله « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه — الى قوله — في الدين » وقد قال مبديا ماقدره الله واعتقده المؤمنون يوم بدر « واذ يعدكم الله إحدى الطائفتين انها لكم وتودون ان غير ذات الشوكة تكون لكم » ومنه قوله تعالى « إنا كفيناك المستهزئين » ولما نزلت بشر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك أصحابه بأن الله كفاه إياهم وكان المستهزؤن نفراً بمكة ينفرون الناس عنه ويؤذونه فهلكوا . وقوله « والله يعصمك من الناس » فكان كذلك على كثرة من رام ضره وقصد قتله والاخبار بذلك معروفة صحيحة

فصل

م١٠٨ (الوجه الرابع) ماأنبأ به من أخبار القرون السالفة . والأمم البائدة . والشرائع الداثرة ، مما كان لايعلم منه القصة الواحدة الا الفذ من أحبار اهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه . ويأتي به على نصه ، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه . وان مثله لم ينله بتعليم . وقد علموا انه صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب . ولا اشتغل بمدارسة ولا مثاقفة . ولم يغب عنهم ، ولا جهل حاله أحد منهم . وقد كان أهل الكتاب كثيراً مايسألونه صلى الله

عليه وسلم عن هذا فينزل عليه من القرآن مايتلو عليهم منه ذكرا . كقصص الأنبياء مع قومهم وخبر موسى والخضر ويوسف وأخوته واصحاب الكهف وذي القرنين ولقمان وابنه واشباه ذلك من الأنباء وبدء الخلق وما فى التوراة والانجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى مما صدقه فيه العلماء بها . ولم يقدروا على تكذيب ماذكر منها : بل اذعنوا لذلك فمن موفق آمن بما سبق له من خير : ومن شقي معاند حاسد . ومع هذا لم يخل عن واحد من النصارى واليهود على شدة عداوتهم له وحرصهم على تكذيبه وطول احتجاجه عليهم بما فى كتبهم : وتقريعهم بما انطوت عليه مصاحفهم : وكثرة سؤالهم له صلى الله عليه وسلم وتعنتهم إياه عن اخبار انبيائهم واسرار علومهم : ومستودعات سيرهم : وإعلامه لهم بمكتوم سرائرهم : ومضمنات كتبهم : مثل سؤالهم عن الروح وذي القرنين واصحاب الكهف وعيسى وحكم الرجم وما حرم إسرائيل على نفسه وما حرم عليهم من الانعام ومن طيبات حسنات احلت لهم فحرمت عليهم ببغيهم : وقوله ذلك « مثلهم في التورية ومثلهم في الانجيل » وغير ذلك من أمورهم التي نزل فيها القرآن فأجابهم وعرفهم بما أوحي اليه من ذلك ثم انكر ذلك توكيده بل اكثرهم صرح بصحة نبوته : وصدق مقالته : واعترف بفضله وحسده إياه : كأهل نجران وابن صوريا وابني اخطب وغيرهم . ومن باهت فى ذلك بعض المباهتة : ودعى ان فيما عندهم من ذلك لما حكاه مخالفة : دعي الى إقامة حجته : وكشف دعوته : فقيل له « قل فأتوا بالتورية فاتلوها ان كنتم صادقين — الى قوله — الظالمون » فقرع ووبخ : ودعا الى احضار ممكن غير ممتنع : فمن معترف بما جحده : ومتواتح يلقي على فضيحته من كتابه يده : ولم يؤثر انه واحداً منهم اظهر بخلاف قوله من كتبه : ولا ابدى صحيحاً ولا سقيما من صحفه : قال الله تعالى « ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير » الآيتين »

(المنار) بقي لقول القاضي فى شفائه بقية تذكر في الدرس التالي

*** ***